مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
مؤتمر اللغة العربية وآدابها الدولي الثاني // أربيل 30 - 31 / 7 / 2025
doi.org/10.52866/esj.2025.07

التعذيب في أدب السجون العربي: نماذج وتجارب

د. أنس بوسلام
جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب

مستخلص:

يتناول البحث موضوع التعذيب في أدب السجون العربي من خلال تحليل ومناقشة مجموعة من التجارب الأدبية سواء بالمغرب أو تونس أو سوريا أو مصر أو الأردن أو فلسطين.

الكلمات المفتاحية: أدب السجون، التعذيب، العالم العربي.

Torture in Arabic Prison Literature: Models and Experiences

Dr. Anass Bousselam
Educational Inspector, PhD in History, Hassan II University,
Casablanca, Morocco.
Anassbou352@gmail.com

Abstract :

This research addresses the topic of torture in Arabic prison literature through the analysis and discussion of a range of literary experiences from Morocco, Tunisia, Syria, Egypt, Jordan, and Palestine.

Keywords: prison literature, torture, Arab world.

مقدمة

أدب السجون هو جنس أدبي يصف فيه الكاتب تجربته الشخصية أو تجربة شخص آخر حينما يكون مقيدا في مكان ضد إرادته، مثل السجن أو الإقامة الجبرية، ويمكن أن تكون الأدبيات حول السجن، أو عن مرحلة قبله، أو بعده، أو مكتوبة أثناء إقامة الكاتب في السجن، وإما أن يكون مذكرات أو قصصا أو محض خيال.

يعالج البحث عددا من المحاور الأساسية المرتبطة بمحن السجن من خلال أدب السجون العربي ومن ذلك تبيان مظاهر معاناة السجين البدنية والنفسية والإنسانية والاجتماعية، تتمحور الإشكالية حول التساؤل المركزي الآتي: إلى أي حد عبر أدب السجون بنجاح عن محن السجن وواقع الاستبداد والشمولية في وطننا العربي؟

وتتجلى أبرز هذه أهداف البحث في الآتي:

* الاستفادة من أدب السجون في الكشف عن الدلالات العميقة لمحن السجن وتجربة فقدان الحرية.

* التوعية والتحسيس بمظاهر انتهاك آدمية الإنسان من خلال أدب السجون.

* إدراك وتقدير أهمية التجارب الإنسانية للاعتقال السياسي ومراراته انطلاقا من أدب السجون.

تم الاستناد في هذا البحث على المنهج التحليلي المرتكز على تقسيم أو تجزئة الظواهر أو المشكلات البحثية إلى العناصر الأولية التي تُكَوِّنها؛ لتسهيل عملية الدراسة والوصول إلى نتائج تتسم بأكبر قدر من العلمية والصدقية، إضافة إلى الانطلاق من الجزئيات والتفاصيل ومحاولة جمعها، ثم معالجتها بالوصف والتحليل والتفسير والمقارنة من أجل الخروج بمجموعة من الخلاصات.

1 - التعذيب في أدب السجون المغربي

- بالمغرب أُعتُبر معتقل تازمامارت، في حد ذاته، آلة للتعذيب والقتل التدريجي، وهو يقع في منطقة قروية وعرة المسالك، تتبع مدينة الرشيدية في الجنوب الشرقي للمغرب، على بعد عشرين كيلومترا من مدينة الريش، وقد ضم المعتقل ثمانية وخمسين زنزانة موزعة على بنايتين (أ) و(ب). وكل زنزانة كانت عبارة عن علبة مستطيلة، طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران وعلوها أربعة أمتار. في حالة ظلام دائم، حيث لا تتم التهوية إلا من خلال ثقوب صغيرة تسمح بتسرب أشعة باهتة.

يرتبط بناء معتقل تازمامارت، الذي فتح في 7 غشت 1973، بحدثين كبيرين هزا النظام السياسي المغربي بداية السبعينيات، ويتعلق الأمر بانقلابين عسكريين، استهدفا الإطاحة بالملك الحسن الثاني: الأول في يوليوز1971 بمهاجمة القصر الملكي للصخيرات، والثاني في غشت 1972 باستهداف طائرة الملك والذي نجا بأعجوبة.

كانت مجموعة المدانين بالمشاركة في الانقلابين تمضي عقوبة عادية في سجن عسكري بمدينة القنيطرة، قبل أن يتخذ قرار باختطاف الضباط المعتقلين ونقلهم سرا إلى مطار الرشيدية، ثم إلى سجن سري رهيب يوجد في منطقة نائية بالأطلس في منطقة الرشيدية.

استقبلت زنازين المعتقل ثمانية وخمسين ضابطا عاشوا في ما يشبه مقبرة بحسب روايات الناجين من المعتقل. وعند اتخاذ قرار الإفراج عن السجناء كان ثمانية وعشرون منهم من صمدوا بإرادة الحياة

ثمانية عشر عاما (ما بين 1973 و1991) بينما قضى الآخرون في محنة البرد القارس والجوع والمرض والعزلة.

تفيد يوميات السجن التي وثقها عدد من الناجين أن نية القائمين كانت تتجه إلى جعل تازمامارت مكانا للموت البطيء، حيث قطعت عن المعتقلين كل أسباب الحياة، والتواصل مع الخارج، غير أنه مع تسرب قصة المعتقل، تنامى الضغط الإعلامي والحقوقي من خارج المغرب في اتجاه الكشف عن مصير المختطفين والمعتقلين، فجاء الإفراج عمن تبقى في السجن في 23 أكتوبر عام 1991.

يعتبر هذا المعتقل أحد أبرز الأمثلة في العالم العربي للتعذيب عن طريق الإخفاء القسري والعزلة (السجن الانفرادي) ومنع الزيارة والتريض وسوء التغذية والإهمال الطبي...، حيث ظلت عائلات المعتقلين، لسنوات تجهل مصير أقاربهم من المعتقلين، هل هم على قيد الحياة أم أموات أم في أي سجن هم...، وقد أدت هذه الأوضاع إلى وفاة نصف المعتقلين تقريبا، وبعضهم قبل أن يدركه الأجل فقد عقله من شدة الوحدة والعزلة واليأس من الخروج، هذا إضافة إلى تشييد هذا المعتقل السري في منطقة صحراوية قارية جنوب شرق المغرب، حيث وصفه أحد نزلائه، ممن كتب لهم الخروج منه على قيد الحياة، وهو الضابط محمد الرايس، قائلا: «في الصيف كانت زنازننا عبارة عن أفران. في الشتاء كان التنفس يصعب ونكاد نختنق بفعل الرطوبة. مرت ستة أشهر، ونحن على هذه الحال، فبدأ أحد رفاقنا الذي لم يتحمل هذه المعاناة يفقد صوابه ويهذي. كانت الظلمة تزيد من مخاوفه ووساوسه والعزلة تفتك بأعماقه. وتدرج حمقه بفعل الاستيهامات والتهيؤات. بدأ يعتقد أنه ليس وحيدا في الزنزانة ويتخيل أشياء لا تصدق... هذا الرفيق هو الليوتنان محمد بن شمسي ... ذات ليلة صرخ طويلا، وتوسل إلى أمه لتنقذه، ثم صمت فجأة في يوم الغد فتح الحراس زنزانته، فوجدوه ميتا ملقى على الأرض وسط بركة ماء عاريا... نقل الحراس ما حدث إلى المدير، فأمرهم بدفنه فورا في الساحة القاحلة للمعتقل، فوارى جثمانه الثرى بدون غسل أو كفن أو صلاة جنازة أو طقوس دينية أخرى. أقبر كما تقبر الكلاب المسعورة. كانت الساعة العاشرة صباحا عندما دخل الحراس إلى زنزانته وحملوه، ثم وضعوه في غطائه المتسخ المبقع بالفضلات، ثم حملوه إلى الخارج.. سمعنا صرير النقالة (برويط) وهي تنقل الجير وتفرغ فوق جثمانه»[1].

ويتحدث الرايس عن الإهمال الطبي المتعمد بمعتقل تازمامارت والمفضي إلى الموت، فيقول: «وصاحبنا كينات الذي كان يشكو كثيرا من آلام في معدته، سقط مريضا ولزم بلاطته (عوض فراشه) مجبرا بفعل الإنهاك. قل غذاؤه إلى أن توقف تماما بعد أن فقد الشهية، تلا ذلك نزيف حاد رهيب، فبصق الدم من فمه وخرج من مؤخرته أيضا، أراه للحراس ليخبروا المدير غير أن هذا الأخير رفض إعطاءه أي دواء أو تمتيعه بالعلاج. طلب من الحراس أن يساعدوه فجابهوه باللامبالاة. توسل إليهم، فصموا آذانهم، مرت الأيام وزادت الآلام حدة ونزف الدم: لا دواء أو حتى أعشاب لتهدئة آلامه أو كلام جميل يجبر الخاطر ويواسي الروح. وكل صباح كان الحارس يدخل إلى الزنزانة

(1) الرايس، محمد. من الصخيرات إلى تازمامارت تذكرة ذهاب وإياب إلى الجحيم (رواية). ترجمة عبد الحميد جماهري. ط 4، الدار البيضاء: افريقيا الشرق، 2013، ص 123 – 122.

وبيده مصباح كهربائي ليتأكد إن كان لا يزال على قيد الحياة، جر كينات آلامه مدة أربعة أشهر بلا أدنى مساعدة، ويوما عن يوم كان يغرق في بركة الموت الآسنة يئن بلا صراخ أو بكاء. لا شك أنه كان ينادي على أبيه أو أمه عندما يشتد هذيانه أو ينادي على زوجته، وظلت نداءاته بلا جواب، إلى أن انطفأت روحه يوم فاتح دجنبر 1974 في جو ثلجي بارد»[2].

كما ذكر الرايس تجربة السجين الذي قتله المرحاض، والذي انسدت مواسيره، ولم ينقل إلى غرفة أخرى رغم توسلات السجين، فظل يسعل ويبصق الدم الذي لم يكترث له الحراس. فزع العيدي عندما تيقن بإصابته بالسل وبدأ الجنون يتسلل إليه شيئا فشيئا. صرخ، بكى... وقبل أسبوع من وفاته أصابته حمى هذيانية وهدّه التعب، فما عاد قادرا على الصراخ أو الأنين وظل صموتا إلى حدود 20 فبراير 1978، فخر صريعا وأسلم الروح لباريها في صمت، فدفن في الشروط المعروفة»[3].

ويتحدث الضابط أحمد المرزوقي في روايته وسيرته التوثيقية الشهيرة: «تازمامارت، الزنزانة 10»، وهو رفيق الرايس في تازمامارت، يتحدث عن مشكلة المراحيض وقضاء الحاجة، فيقول: «قنوات الصرف الصحي كانت كلها ضيقة، وقد رأينا أننا كنا نضطر في كثير من الأحيان لاستعمال أيدينا لصرف نفاياتنا كلما قضينا حاجتنا. وهكذا سقط لغالو (هذا غير قتيل المرحاض المذكور سابقا) في المحذور، وأصبح كلما أراد التغوط كلفه الأمر جهدا باهظا وعناء كبيرا. كيف لا وقد كانت الفظاعة أحيانا تدفع بعض الأصدقاء، وهم في حالات القبض، أن يتغوطوا في صحونهم، ثم يصبو على نفاياتهم الماء ويفتتوها بأصابعهم، حتى إذا ما لانت رموا بها في المرحاض ليتقوا شر اختناق القناة»[4].

وعن سوء التغذية يقول الرايس: «كما أن الموت لم تنه «تبوريدتها» (رقصتها)، حيث توفي السارجان تهامي أبونسي يوم 24 أبريل 1978، أي بعد ثلاثة أيام على وفاة أبو المعقول، وقد أقعده التهاب معوي وعانى أيما معاناة إلى أن وافاه الأجل ودفن بجوار رفاقه الذين توفي أغلبهم نتيجة التهاب في المعدة أو الأمعاء. كان السبب وراء هذا يكمن في سوء التغذية المتجلي في لب الخبز اللصيق والنتن تفوح منه رائحة التعفن، إلى درجة أننا كنا نجد أنفسنا مكرهين على كشطه وترك القشرة تجف قليلا قبل أكلها»[5]، كما ساق الرايس قصة سماها «وجبة الفئران»، يومها لاحظ الكابورال لهبوب الذي كان يوزع وجباتنا، وجود جرذ (طوبّة) ضخمة في الطنجرة... كان هذا القارض مطهيا جيدا وزغبه يطفو فوق سطح الطعام، اندهش النادل وأسقط في يده فانتشلها بمغرفته وطوّح بها في الكولوار، ثم واصل عمله بكل هدوء. التهمنا وجبتنا بشهية، دون عسر في الهضم أو القيء»[6]. وفيما يخص الإضاءة أشار الرايس إلى استعمال المرايا الصغيرة التي تأتي بالضوء[7]. ونتيجة الحرمان الجنسي الذي تعرض له هؤلاء على مر سنوات

(2) نفسه، ص 130.

(3) نفسه، ص 156.

(4) أحمد المرزوقي، تزمامرت: الزنزانة رقم 10 (رواية)، ط 1 (الدار البيضاء – بيروت: المركز الثقافي العربي، 2012)، ص 213.

(5) نفسه، ص 158.

(6) محمد الرايس، من الصخيرات إلى تازمامارت...، مرجع سابق، ص 158.

(7) نفسه، ص 162.

اضطروا إلى الاستمناء[8].

أما الطاهر بنجلون حينما يروي تجربة المعتقل عزيز بنبين بسجن تازمامارت، فيقول على لسان الأخير: «لم أسع لأن أعرف كيف يتدبر الآخرون أمر ذكرهم، أنا، من جهتي، كنت قد سويت المسألة منذ اليوم الثالث لحلولي في الحفرة. فكما قررت أنني بلا عائلة، بلا خطيبة، بلا ماض، قررت ألا أفكر في العالم الخارجي، وبالتالي حرمت على نفسي كل رغبة، وكل إيحاء بها، لم أستخدم ذكري إلا للتبول، وما تبقى من الوقت يبقى باردا، حتى إني لم أكن أرى أحلاما جنسية»[9].

وأمام التضييق الذي تعرضوا له في الكلام والحديث خصوصا في المواضيع السياسية التي تهمهم كمعتقلين، اختلق هؤلاء لغة خاصة يقول عنها الرايس: «ولابد لمن أراد فك رموز لغتنا أن يتوفر على شبكة لذلك»، وهكذا وضعوا لكل فرد من أفراد طاقم السجن لقبا فالمدير – مثلا – كان هو «صاحب الشبشب»[10]، كما نجد المرزوقي يخصص قسما من سيرته التوثيقية لما سماه بـ«اللغة التزمامارتية»[11].

ونتيجة الجحيم الذي عاشه هؤلاء نجد عبد الرحيم حزل يعنون النسخة المترجمة إلى العربية من رواية عزيز بنبين بـ«تازماموت» وليس تازمامارت Tazmamart، وعبارة «تازماموت» تتألف من «الزّمت» (كلمة في العامية المغربية تعني الضيق الشديد الناجم عن ظروف مناخية قاسية، وهنا للدلالة على موقع تازمامارت الصحراوي والقاري جنوب شرق المغرب)،إضافة إلى تضمنها كلمة الموت، وفي هذا السياق يقول بنبين: استمر الموت يوقع فينا ضرباته القاصمة، واستبدت بنا الأحلام المنذرة، وباتت البومة تصر على العودة كل مساء لتذكرنا بأن الحصاد كان لا يزال في أوله»[12].

وتأكيدا لهذا الوصف يقول أحمد المرزوقي: «لقد تحملنا البرد القارس في الزنزانة – الثلاجة طوال شهور ونحن عراة.. واختنقنا إلى حد الإغماء أحيانا من فرط الحرارة وقلة الماء والتهوية وطغيان الروائح الكريهة في الصيف. وتمزقت أحشاؤنا بمناشير الجوع المروع ما يقرب من خمس قرن من الزمن. وتعرضت أجسام بعضنا إلى نهش العقارب وجحافل الحشرات التي عاشت معنا في الظلام»[13].

2 - التعذيب في أدب السجون التونسي

إن ما ترويه كتب اليسار واليمين بتونس، مثلا، عن فنون التعذيب واحدة، حتى بتنا ونحن نقرأ هذه المصنفات أمام بيبليوغرافيا سجل للتعذيب في هذا البلد. فتحكي رواية «الحبس كذاب»، مثلا، لحظة مهمة في حياة السجين السياسي وهي الدقائق الأولى في المعتقل أين ينتظره الجلادون، الذين لا يهمهم «سوى كسر شوكة المقبوض عليه بزرع الرعب فيه من خلال سهام متعددة تنهال عليه من

(8) يُنظر: المرجع نفسه، ص 176– 180.

(9) الطاهر بنجلون، تلك العتمة الباهرة (رواية)، ترجمة بسام حجار، ط 1 (بيروت: دار الساقي، 2002)، ص 220.

(10) محمد الرايس، من الصخيرات إلى تازمامارت...، مرجع سابق، ص 223.

(11) أحمد المرزوقي، تازمامرت...، مرجع سابق، ص 167– 172.

(12) عزيز بنبين، تازماموت (رواية)، ترجمة عبد الرحيم حزل، ط 1 (الرباط: دار الأمان، 2011)، ص 111، وتُنظر، أيضا، ص 117، 125، 127، 137.

(13) أحمد المرزوقي، تازمامرت...، مرجع سابق، ص 211.

كل صوب، كالشتم والتعليق والتهديد أو الشروع مباشرة في الاعتداء عليه جنسيا». ولا يفرق الجلاد بين ضحاياه «إن كانت الضحية رجلا أو امرأة أو شيوعيا أو إسلاميا أو واحدا من أهل السلطة أخل به الزمن لحقيبة سلمت له ليودعها بنكا خارج البلد، فأودعها في آخر، تحسبا لتقلبات الدهر»[14].

3 - التعذيب في أدب السجون السوري

تحدثت هبة الدباغ، مثلا، في كتابها «خمس دقائق وحسب... تسع سنوات في سجون سورية» عن التعرية و«التشبيح»: أي تكبيل اليدين خلف الظهر وتعليق الشخص منهما مرفوعا عن الأرضف كأنما هو الذبيحة بين يدي الجزار والتعذيب وقص اللسان (حالة الحاجة مديحة من حلب وإيمان «أم شيماء» وعائشة) ومحاولات الاغتصاب والاعتداء الجنسي[15]، وسحل القتلى أمام أنظار زوجاتهم اللائي يتم تعذيبهن بعد ذلك (حالة فوزية ح)[16]، وكي الأرجل والفخذين والجسد عموما (حالة هالة)[17]، والأشغال الشاقة[18]. ومنح النساء إبرا للعقم لا للألم (حالة الطبيب سمير في سجن تدمر مع الكاتبة هبة الدباغ)[19].

4 - التعذيب في أدب السجون المصري

يعرض المعتقل المصري - والذي مازال قيد الاعتقال إلى حدود اللحظة - السيد عصام سلطان، وهو الحقوقي ونائب رئيس حزب الوسط، من خلال قصيدة تم تهريبها من سجن العقرب سيئ السمعة بمصر، يعرض شعرا لمجموعة من العذابات، فيقول على بحر المتدارك[20]:

حكاية سجن شاع ظلامه
وذاع عذابه بالوادي والقمم
هو الجمرة الحمراء نهار صيفه
والزمهرير شتاؤه بلا رحم
جدرانه الصخر وأبوابه الصلب
كبنا ثمود وعاد بذي إرم
الجوع يفترس البطون توحشا
حتى بدا الأسارى جلدا على عظم
والمنع أصل والبين فصل
فلا وصال ولا اتصال بذي رحم
وأسراب البعوض لا نهاية لها
تشرب دماء وخزا بلا سأم
فإذا أصابك داء فأنت متروك
نهبا إلى الموت أو موتا من الورم
والفكر محظور والرأي ملفوظ
فلا يحملن بنانك لمسة القلم
فإن ضبطت لديك قصاصة
فأنت مرتكب لأبشع الجرم
تزيدك منعا إلى منع
تكيلك تهما إلى تهم
ذق العذاب ألوانا مبرمجة
هو في المناهج موضوع من القدم
واصرخ بصوتك تحت السوط منفجرا
إن الصراخ ضرب من الألم

(14) فتحي بن الحاج يحيى، الحبس كذّاب... والحيّ يروّح: ورقات من دفاتر اليسار في الزمن البورقيبي، ط 3 (تونس: كلمات عابرة، 2009)، ص 47 و48.

(15) Dabbarh, Heba. juste five minutes..nine years in the prison of Syria.translated by Bayan khatib.Canada: library and Archives, 2007, pp. 44- 45, 47.

(16) Ibid, p. 48.

(17) Ibid, p. 80.

(18) Ibid, p. 127.

(19) Ibid, p. 145.

(20) عصام سلطان، قصيدة (مهربة من سجن العقرب بمصر)، غير منشورة. (مع الإشارة إلى أن هناك خللا عروضيا في القصيدة).

أما زينب الغزالي، فتحكي لنا عن علاقتها بجماعة الإخوان المسلمين، وما لاقوه من تعذيب وتنكيل بشكل وحشي في السجون إبان فترة جمال عبد الناصر، وما لاقته هي شخصيا من تعذيب وإهانات وضرب بالسياط وتسليط الكلاب، حتى أن القارئ يكاد يكذّب ما يقرأ لأنه بأي حال من الأحوال، ليس آدميا بالمرة! لا يكاد عقل يصدق أن هناك من يستطيع أن يفعل ذلك ويجرد نفسه من الرحمة والشفقة حتى تجاه النساء![21].

وتجدر الإشارة إلى أن بعض مؤلفات أدب السجون قد أقر أصحابها من المعتقلين بعدم تعرضهم للتعذيب، ومن بينهم الكاتبة المصرية رضوى عاشور والتي تحدثت فيها عن تجربة اعتقال والدها وتجربتها هي الشخصية، وكذا شقيقها الأصغر، وعن التعذيب تقول: «لم نعذب، لأننا طلاب تعي السلطة حجم ما نمثله من تهديد، أو لأن الرئيس الجديد (محمد أنور السادات) كان قد اعتلى سدة الحكم مؤخرا وهو يحمل كارت الديمقراطية»[22].

5 - التعذيب في أدب السجون الأردني

هناك تجربة إنسانية لا تخلو من الحدة والقسوة مقارنة بالتجارب السجنية الأخرى، تمثلها رواية «يسمعون حسيسها»[23]، وهي أهم أعمال الأردني أيمن العتوم العديدة حول أدب السجون، وعنوانها مقتبس من قوله تعالى: «لا يسمعون حسيسها»[24]، أما في سجن تدمر، فإن سجناءه يسمعون هذا الحسيس، يعيشون في جهنم الدنيا، بعذابها ومرارتها وقسوتها وطغيانها وجبروتها، فالعنوان لا ينقل المستوى الذي وصلت الرواية إلى وصفه فحسب، بل المرحلة التي كان السجناء يعيشون فيها الجحيم نفسه.

تنتقل هذه الرواية إلى أسئلة كثيرة منها الفلسفي والديني والإنساني والاجتماعي ... فتشتت الفكر وتغير الهدف والطموح وتهدم كلما سبق، لتؤسس لفكرة الإنسان والقهر والأمل والحرية.

حاول هذا العمل أن يبين أن المساواة في السجن تعني عدم التمييز في التعذيب، المساواة في الإذلال بغض النظر عن أي اعتبار. إن بنية هذه الرواية تجعل من القارئ جزءا منها، شارك السجين سمومها وحرها ووجعها ولهيب سياطها، وليس مجرد سماع حسيسها[25].

رواية «يسمعون حسيسها» هي واحدة من أهم المؤلفات حول أدب السجون في العالم العربي، وتدور أحداثها في سجن تدمر الرهيب، إذ تروي قصة شخص اسمه، في الرواية، الدكتور إياد،

(21) تُنظر أمثلة عن هذه العذابات عند زينب الغزالي، أيام من حياتي (رواية)، (د.م: د.ن، 1987)، ص 25، 26، 27 – 30 – 32، 56، 70، 82، 86.

(22) رضوى عاشور، فرج (رواية)، ط 1 (القاهرة: دار الشروق، 2008)، ص 90.

(23) أيمن العتوم، يسمعون حسيسها: معايشات سجين تدمري 1980– 1997 (رواية)، ط 3 (عمّان: دار الفارس للنشر والتوزيع، أيار 2013).

(24) سورة الأنبياء، الآية 102.

(25) من الأبحاث الجامعية التي تناولت رواية «يسمعون حسيسها..»، لأيمن العتوم، بالدراسة والتحليل والنقد والمقارنة، يُنظر: سلمى شارع ونصر الدين صوالح، مقاربة بنيوية تكوينية مقارنة في أدب السجون «عربة المجانين» لكارلوس ليسكانو و«يسمعون حسيسها» لأيمن العتوم –أنموذجا– (مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في تخصص: أدب معاصر، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة العربي التبسي – تبسة –، الجزائر، السنة الجامعية: 2017/ 2016)، ص 12 – 84.

وهو أحد الناجين من سجن تدمر الصحراوي ذي السمعة المخيفة التي تملأ الإنسان رعبا ما إن يسمع به، وشخصية د. إياد حقيقية، وهو سجين سابق في سجن تدمر، وقد روى القصة للكاتب أيمن العتوم ليكتب الرواية، وتبدأ أحداث الرواية بالقبض على د. إياد بتهمة الانضمام لخلية إرهابية حاولت اغتيال الزعيم، وما بين المهجعين 27 و34 تدور أحداث الرواية بكل ما فيها من ألم وتَعذيب ورائحة لدماء زكية وأرواح تفيض إلى بارئها. يحكي د. إياد في هذه الرواية كيفية تعذيب الإنسان والوسائل القذرة التي تمارس عليه، وكيف يتحول داخل المعتقل من إنسان إلى كائن بين الحيوان والجماد، وكيف تُمسخ هويته من كل شيء، وتمضي الرواية على مدى ثلاث عشرة سنة من الإهانة والتعذيب والتنكيل وفقد الأصدقاء، بفعل «حفلات» الإعدام التي تتم كل أسبوع مرتين، أو بفعل الأمراض الخطيرة كالكوليرا التي تنتج من عدم الاعتناء بنظافة المساجين أو مهاجعهم أو عنابرهم، تمضي الرواية بالقارئ يعيشها كلمة كلمة، وجملة جملة، وفصلا فصلا، تمضي به بما بها من أبرياء ومجرمين إلى أن تصل به إلى النهاية لأن يقول: «ولا غالب إلّا الله»[26].

وكثيرا ما عمد السجانون في سجن تدمر إلى إخراج السجناء عراة في ظلمة الليل وقسوة البرد لتعذيبهم وإذلالهم في ليلة رأس السنة، ويصف الكاتب مصطفى خليفة في رواية «القوقعة» هذه الحادثة قائلا: «الجسد. الخدر يزداد وينتشر، الألم يتعمم ويتعمق، الأسنان تصطك، تتساقط الدموع بردا وبكاء، فتتجمد على الخدين وزوايا الفم المرتجف...يحدث انفصال تام بين العقل والجسد... وتسقط الكرابيج على جميع أنحاء الجسد المتخشب... لقد عاينت الكثير من صنوف الألم الجسدي، لكن أن تساط في البرد وأنت مبلل... أمر لا يمكن وصفه»[27].

6 - التعذيب في أدب السجون الفلسطيني

في فلسطين نجد عددا كبيرا من الكتاب والأدباء شغلوا بأدب السجون، نظرا للوجود الواقعي للسجن في الواقع الفلسطيني، بل يمكن أن نرى فلسطين كلها قد تحولت إلى سجن كبير تحت الاحتلال، ولكن بعيدا عن المجازات هناك عشرات الآلاف من أبناء شعبنا الفلسطيني يقبعون في سجون الاحتلال التي تستعمل فيها أحدث أساليب التكنولوجيا لقمع الإنسان وحجز حريته ومنعه من المقاومة في تجربة قاسية من أسوء ما يمكن أن يتعرض له الإنسان.

ولذلك فموضوع السجن من الموضوعات الكبرى في الأدب الفلسطيني، واليوم هناك وعي به لدى السجناء وذويهم، ولدى بعض الدارسين وبعض دور النشر داخل وخارج فلسطين. وهو ما نؤيده وندعو إلى مزيد من الاهتمام به ليتطور من الناحية الفنية ويكتسب هويته الأدبية الخاصة.

أبرز الكتابات من الناحية الفنية هي ما كتبه أدباء ومبدعون لهم عناية بالأدب قبل السجن وبعده، من مثل ما كتبه أدباء معروفون تعرضوا للسجن في بعض مراحل حياتهم مثل عبد الناصر

(26) إلهام الحدابي، «يسمعون حسيسها»: أدب السجون عندما يصبح جزءا من وعي المجتمع»، إضاءات، 15/01/2017، شوهد في 23/04/2025، في: https://www.ida2at.com/they-shall-hear-it-prison-literature-when-it-becomes-part-of-community-awareness/

(27) مصطفى خليفة، القوقعة: يوميات متلصص (رواية)، (بيروت: دار الآداب، 2008)، ص 178 – 179.

صالح[28]، والمتوكل طه[29]، وفايز أبو شمالة[30]، وصولا إلى كتابات أسامة العيسة الذي وضع رواية سيرية مهمة بعنوان «المسكوبية»[31] وهو اسم مبنى قديم حوله الاحتلال إلى سجن شهير قرب مدينة القدس. وفي مجال السيرة الذاتية يمكن أن أمثل بسيرة الأديبة والسجينة السابقة عائشة عودة التي وضعتها في كتابين ينتميان للسيرة الذاتية: الأول «أحلام بالحرية»[32] والثاني «ثمنا للشمس»[33]، وهما أيضا من الكتب التي جمعت بين قوة التعبير عن التجربة في المعتقل أو السجن، وفي المستوى الفني والأدبي الرفيع الذي يمنح أدب السجون ما يحتاج إليه من الصمود الأدبي.

في رواية «أحلام بالحرية» تبدو ملامح التعذيب الجنسي واضحة في السجن، كالاغتصاب وهتك العرض، ولا شك أن مشهد اغتصاب صاحبة الرواية عائشة عودة بالعصا في أحد سجون الاحتلال الإسرائيلي كان من أشد المشاهد عنفا وألما وقسوة في أدب السجون العربي، وما ترتب على ذلك المشهد من أثر نفسي قاس رافق السجينة، وقد تعمد السجان المعذب، أن يهين السجينة حين قام بسحبها خارج غرفة التعذيب، أمام مرأى سجناء قيدوا إلى الحائط جانبي الممر. تقول عائشة عودة: «استمروا في تفتيت صدري ومحاولات اختراق رحمي بالعصا دون أن يتمكنوا من ذلك... أمسك أحدهما بقدمي والآخر بذراعي، مسحا الأرض بجسدي ثم خرجا بي إلى الممر، صف من الشباب أوقفوهم إلى جانب الممر، أغمضت عيوني، ساروا بي في الممر، ثم عادوا، انفجر أحد الشباب باكيا، كان بكاؤه نشيجا، لكني لم أجرؤ على فتح عيوني»[34].

حرص السجان الإسرائيلي على ممارسة التعذيب النفسي في صور أخرى كذلك، كالعزل الانفرادي التام عن العالم الخارجي، وإغراق السجين في دوامة يجهل فيها المكان والوقت، وحرمانه من الزيارات، ما يقوده إلى اضطرابات نفسية وعصبية وتوتر كبير[35].

هذا إضافة إلى التعذيب اللفظي، ومن أمثلته ما ذكره وليد الهودلي في «ستائر العتمة» أثناء التحقيق مع عامر. يقول الكاتب: «نحن نعرف عنك كل شيء... ونعرف كيف تنام مع زوجتك»[36]. وبلغ

(28) من أهم أعماله المصنفة في إطار أدب السجون، نذكر:
- «رسائل من الزنزانة..إلى أمي»، وقد كتبها الشاعر في سجن طولكرم.
- «في البدء كان الحجر»، وقد كتبها داخل السجون الإسرائيلية، وتتحدث عن معاناة وصمود الأسرى الفلسطينيين في الزنازين الإسرائيلية.

(29) المتوكل طه، الأبواب المنسية (مجموعة قصصية)، ط 1 (رام الله: وزارة شؤون الأسرى والمحررين الفلسطينية، 2011).

(30) فايز أبو شمالة، السجن في الشعر الفلسطيني: 1967 - 2001، الجزء الأول والثاني، (رام الله: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، 2003).

(31) أسامة العيسة، المسكوبية (رواية)، ط 1 (رام الله: الرعاة للدراسات والنشر، 2010).

(32) عائشة عودة، أحلام بالحرية (رواية)، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005).

(33) عائشة عودة، ثمنا للشمس (رواية)، (رام الله: مواطن - المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، 2012).

(34) عودة، أحلام...، مرجع سابق، ص 125.

(35) يُنظر: رجوب عوض، «التحقيق والتعذيب في السجون الإسرائيلية»، الجزيرة نت، شوهد في 24/ 04/ 2025، في:
http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews

(36) وليد الهودلي، ستائر العتمة (رواية)، شبكة فلسطين للأسرى، شوهد في 24/ 04/ 2025، في:
https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=19856
، ص 58 .

الأسلوب أقصى دناءته، عندما قام المحقق بابتزاز عامر بصور جنسية مدبلجة مع فتاة يهودية، «شفتا اللعينة على شفتيه، وصدرها على صدره... صورتان متداخلتان بشكل فاضح... وعامر يظهر بكل ملامحه... ما رأيك بأن نعرض هذه الصور على زوجتك... كيف يا عامر لو نشرنا هذه الصور عندكم في البلد؟»[37].

ممارسة التنكيل والتعذيب حتى الموت أحد الوسائل التي تتبعها دول الاحتلال، ودولة إسرائيل لها المثل الأعلى في هذا المجال، والكاتبة عائشة عودة تقدم لنا بعض ما تعرضت له من تعذيب وحشي على يد جنود دولة الاحتلال، فأول مقابلة مع الجلاد كانت بهذا الشكل: «بشوفك يا شرموطة مش مهتمة؟ راح أشلك، راح أخلع عيونك، راح أشوه وجهك، وأخليك مثل القرد»[38]. بعد هذا الكلام ينتقل الجلاد إلى الشكل المتعارف عليه في معتقلات الاحتلال، التعذيب الجسدي، الجسد الذي يرفض الاحتلال ويقاومه لا بد من الانتقام منه، وأهم جزء منه الرأس، فهو المحرك للجسد، مركز/ قوة الفعل المقاوم، من هنا يجب التركيز عليه لكي يتم تخريبه، تحطيمه بحيث لا يعود يعمل كالسابق، «ناول الأنبوبتين للواقف خلفي، بدأ يضربني بهما على رأسي كما يفعل قارع الطبل، رفعت يدي لأحمي رأسي فضربني فوقهما[39]، بعد هذه العملية تصف لنا الكاتبة حالتها المزرية، حيث شعرت بأن صوت الضجيج أصبح ملازما لها، فلا تستطيع أن تتخلص منه، «هل انتهى عالمي إلى ضجيج، هل يسكنني إلى الأبد؟ هل فقد السمع؟[40]. إذن الرأس وما فيه من مركز للسمع والبصر والتفكير هو الأهم عند الجلاد، وكأن هناك عملية انتقام منه، ناهيك عن الجسد، هذا الرأس الذي تجاوز المألوف وخرج متحديا الاحتلال، لا بد من النيل منه.

بعد أن يتم تجاوز المرحلة الأولى من التعذيب – الضرب على الرأس – وينتقل الجلاد إلى شكل آخر: شكل الضرب بالكرباج، «لوح بالكرباج عاليا وخبطه على كتفي ملتفا على ظهري، خرج الألم نارا من رأسي. قال: هذه تحميلة فقط يا بنت القحبة»[41]، بهذه القسوة والوحشية يتعامل الجلاد مع ضحيته، فمثل هذه التفاصيل تبين حجم السادية والوحشية التي تسيطر على عناصر دولة الاحتلال، فهم لا يكتفون بالتعذيب الجسدي وحسب، بل أيضا، يضيفون عليها التعذيب المعنوي، من خلال الألفاظ البذيئة التي لا يتقبلها الإنسان السوي أبدا.

أدب السجون في فلسطين لون من ألوان أدب المقاومة، يعبر فيما يعبر عن أشواق الإنسان الفلسطيني إلى الحرية، وإلى زوال الاحتلال، ويجسد جانبا من معاناة أبناء الشعب الفلسطيني وهم يواجهون آخر قوى الاستعمار في العصر الحديث، وهو أدب جدير بالقراءة والاهتمام من النقاد والقراء لشدة ارتباطه بواقعنا، ولقوة شهادته على ما يتعرض له الإنسان والمكان والزمان من محاولات للاقتلاع والتغيير والعبث، إنه أدب الصمود والمقاومة، والأدب الحي مهما يبلغ العسف

(37) المرجع نفسه، ص 135.

(38) رائد الحواري، «الفلسطيني والاحتلال في رواية – أحلام بالحرية– عائشة عودة»، الحوار المتمدن، العدد 4973، 2015/ 11/ 02، شوهد في: 2025/ 04/ 25، في:
https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=490963

(39) عائشة عودة، أحلام...، مرجع سابق، ص 56.

(40) نفسه، ص 58.

(41) نفسه، ص 61.

والظلم والعدوان[42].

خاتمة

يعكس أدب السجون طغيان الاستبداد على الواقع السياسي العربي وخلافا للموضوعات المعتادة، فالحديث عن التعذيب والقهر والعنف ليس اختياريا يختاره الروائي بمنتهى الحرية، وإنما هو أمر مفروض على من يريد أن يأخذ على عاتقه مسايرة هذا الواقع. «إن علاقة الأدب بالسياسة علاقة جدلية ومتواصلة، طالما وجد الأديب نفسه داخل مجتمع معين يعبر من خلاله عن دوره وحقوقه ومكانته، ويبحث بشكل دائم عن حريته وإنسانيته».

لقد تأثرت تجربة فقدان الحرية ومدى قسوتها بظروف المعتقل المادية، ولعل هذا ما جعل في تقديرنا أن تجارب معتقلي بعض السجون كان لها طابعها الخاص من حيث حدة الصورة التي قدمتها، ونخص بالذكر هنا كلا من معتقل «تازمامارت» بالمغرب، وسجن «تدمر» بسوريا، واللذين يعتبران – بحق – آلة للقتل وتحطيم إنسانية الإنسان فضلا عن سلبه حريته، أما من حيث الإنتاج، فيعتبر المغرب ومصر والأردن وفلسطين وسوريا من أكثر الدول العربية إنتاجا لمؤلفات أدب السجون.

تعتبر الكتابة حول السجن سلطة معاكسة للسجان. فإذا كان الجلاد يستهدف محو آثار جريمته، فإنه من خلال هذه الكتابة يحاول الضحية التذكير بها والتأكيد على حجم انتهاكات السلطة. غير أنها كتابة لا يمكن عزل فضحها للآخر عن فضح الذات في حدود معينة وذلك من خلال وقوفها عند ملامح التعايش مع المرض والجوع والكبت والجنون أحيانا، والضعف الإنساني عموما. إنها بقدر ما تنفس عن المكبوت وتبحث عن توازن نفسي تجعل الذات تعاود عيش جرح الاعتقال. كتابة يمكن اعتبارها وجع مضاعف وصرخة مدوية لضمير ملتاع. هي بالنتيجة ممارسة استشفائية قصد استرجاع الثقة في النفس وفي المجتمع. إنها نضال مواز للنضال داخل المعتقل.. صحيح أن الذات بالبوح والاعتراف تجد نفسها في وضع ملتبس، إذ أنها تتأذى وتتطهر في ذات الآن، الأمر الذي يطرح علينا سؤالا عميقا من قبيل: هل الجحيم هو أن نتذكر جرح الاعتقال أم ننساه؟

وفي الأخير، يمكن أن نخرج بالنتائج الآتية:

– إذا كان السجن فضاء سالبا للحرية وحادا من الحركة الجسدية، فإنه قاصر عن سلب المعتقل حرية التفكير والإبداع والكتابة...فبالكتابة يمنح بعض المعنى لتجربة الاعتقال والسجن الذي تحاول الدولة إخفاءه، إلا أن الكتابة تجعله باديا للعيان في العديد من التجارب.

– وجود قواسم مشتركة في الكتابة السجنية العربية، ولكن لا نغفل أن لكل بلد عربي جانبا من الخصوصية: خصوصيته فيما يتعلق بهامش الحرية ومستوى الاستبداد أو التحول الديمقراطي، فأدب السجون العربي ظل ويظل محكوما بنسبية النتائج.

– الكتابات السجنية عامة، والرواية السجنية بشكل خاص لها القدرة على طرح أزمات الواقع والصراعات الإيديولوجية والتي يناضل أصحابها من أجل الحرية وإثبات الذات الإنسانية.

– يؤكد أدب السجون على الطابع الفكري للصراع بين سلطة استبداد سياسي تقصي فكر الآخر وتلغيه ومثقفين يناضلون في سبيل العدل

(42) محمد عبيد الله، أدب السجون أم أدب حرية، telema-roc، 2022/ 03/ 14، شوهد في: 2025/ 04/ 26، في: https://www.telemaroc.tv/info/26474

والحرية والقيم الإنسانية.

– يؤكد أدب السجون على أن تجربة السجن الطويلة وأشكال التعذيب والاضطهاد والقهر السياسي أعجز من أن تقتل إرادة المثقفين وتكبح فكرهم.

– تحمل أشكال التعذيب وصور الاستبداد وأساليب القهر وشخصيات المحققين والجلادين في أعمال أدب السجون كثيرا من أوجه التشابه.

– تؤكد روايات أدب السجون سعي كل أديب يملك فكرا حرا إلى رفض الرضوخ للاستبداد، كما يسعى إلى حمل لواء الحرية ومقاومة الظلم والدفاع عن القيم.

– تعتبر تجربة الاعتقال وفقدان الحرية تجربة إنسانية معقدة، باعتبارها تستفز الذات البشرية وتمس مختلف أبعاد الظاهرة الإنسانية، ولذلك تظل مقاربة الموضوع محكومة بنسبية النتائج والأحكام، حيث تظل لكل تجربة خصوصيتها وفرادتها، وفي الآن ذاته لها تقاطعاتها مع تجارب أخرى.